"الصوفية" بين الإيجابية.. واعتزال تعمير الحياة

أ. د. عبدالحليم عويس

تاريخ الإضافة: 10/12/2012 ميلادي - 26/1/1434 هجري

الزيارات: 6649

"الصوفية" بين الإيجابية.. واعتزال تعمير الحياة

تقتضي رسالة الإنسان في تعمير الكون – وهي الرسالة التي استخلفه الله عليها – أن تكو مبررات تَدفعه وتوجِّهه لتعمير الحياة، وقد انتهى الإنسان الأوروبي من وضْع مبرراته، وه التكنولوجي والعلمي، والإيمان بالاستعمار كرسالة حضارية، وفي فترة تألُّق العالم الإسلامي الأولى، المختلفة عبر التاريخ، كان المبرر للمسلم هو حب الإسلام ونشْره في العالم، على أن كل ذلك ك وفاعلية، منتصرًا على النزعات الانعزالية والسكونية.

أما عندما يمر العالم الإسلامي بفترات قلقٍ واضطرابٍ وهمود حضاري، فإن الدوافع والمبررات تَذبُ قد تصبح مبررات المجتمع الإسلامي – كما يقول مالك بن نبي – (حيوانية)، عليها غلاف مز تعبِّر عنه فلسفة ساذَجة أفرَغت حِكمتها الميتة في العبارة التي تردِّدها الجماهير بالشمال الإفري الفرد عندما يُسأل عن مهمة حياته: "نأكل القوت وننتظر الموت".

ولا يوجد تعبير أكثر وضوحًا من هذا التعبير عن مجتمعٍ فقَد تمامًا مبررات الوجود، وأصبح أبناؤه وينتظرون الموت، ولا شيء غير هذا.

وبعض الناس يخطئون التصور، ويخترعون لأنفسهم مبررات وجود سلبية، لا تتجاوز محيطهم الخا الناس يضع نفسه في إطار حركة محدودة، مثل ذلك الداعية الإمام الذي يؤمُّ الناس في الصلوات خطبة الجمعة، ويظن أن هذا هو دوره.

وبعض الناس ينتمي إلى حركة من الحركات، أو طريقة من الطرق، فيدور في فلكها، وينسى أنه
وأنها مدرسة صغيرة يجب أن تنتهي به إلى المدرسة الجامعة، وإلى الإصلاح الإسلامي العام، لكن
أن طريقته أو حركته هى الوسيلة والغاية، والبداية والنهاية!!

بل إن كثيرًا منهم – وهو يدور في هذا الفلك الضيِّق – يظن أنه أدَّى واجبه تُجاه الإسلام، دون
ماذا قدَّم للمجتمع والأمة؛ اجتماعيًّا، واثقافيًّا، واقتصاديًّا؟!!

●●●

إن الإيمان الصادق هو الإيمان الذي ينتج عنه تغيير وتطويرٌ في كل يوم، وهو – أيضًا – الذي
ويجاهد في سبيل سيادة الحق والمعروف، وهزيمة الباطل والمنكر، وذلك بوسائل الجهاد الشرعي
الإسلام وبسنة الله في التغيير.

لقد كان الرسول – صلى الله عليه وسلم – من أعبد الناس وأزهدهم، وكان يصوم النهار ويقوم
منه الأقدام، ومع ذلك كان يحتفظ بالميزان الحق، الجامع للوسطية، فيُعطي لنفسه حقها ولأهل
الناس والحياة والدعوة إلى الله حقَّها.

لكن كثيرًا من المسلمين – في عصور الضَّعف – قد أهمَلوا هذا النموذج، وأخذوا بعضه وتركو
مبررات العمل والإنتاج، وصناعة الحياة، ولم يعُد لوجودهم غاية عامة، تَنتظم بها حركة العقل وا
اكتَفوا بتبرير عاجز، يُسوِّغون به وجودهم، ويُقوِّمون به أعمالهم، وبالتالي يخدعون أنفسهم ويَرضون

وإذا كان هذا المنحى العاجز قد ظهَرت له بصمات في كثيرٍ من الحركات، فإن الصوفية – في ر
– هم أشهر مَن تنطبق عليهم أزمة فِقدان المبررات؛ لأن كثيرًا من الصوفية – لا سيما الأد
مصيدة (الدوافع السلبية) التي تدفع إلى انتحار الفرد الذي فقَد مبررات حياته، فالصوفي
الطبيعي للحياة، ويتخلص من مسؤولياته، عن طريق الأوراد والمِسبحة، كما يتخلص المنت
مسؤولياته بوسيلة الخنجر، فالصوفي ينتحر بوسائل الروح.

وقد لا يُعجب هذا الرأي كثيرًا من إخواننا المتصوفة، وللصادقين منهم العذرُ في ذلك، إلا أننا
يقوم المتصوفة بتغيير هذه الصورة، وأن يكونوا فاعلين، لهم مدارسهم وصُحفهم، ومشروع

والاقتصادية، حتى يشعر بهم المجتمع الذي يربط بينهم وبين الموالد؛ لأنه – في رأيه – قلَّما يحسُّ العمرانية والإصلاحية.